دور الوسطية في تعزيز الوحدة الوطنية

د. فرات عبد الكريم الجبوري

كلية التربية الأساسية/ جامعة بابل

The Role of Moderateness in Enforcing the National Unity

Dr. Furat Abdul Kareem Al-Juboori

University of Babylon / College of Basic Education

Abstract

Doubtlessly, the nations' commitment to their principles and doctrines is a way to achieve the historical glory. Moderateness reveals the leniency of this great religion. It has been a cause for the spread of Islam throughout the world. In Islam, moderateness means to be moderate in faith, legislations, and in ethics. The research is divided into three sections preceded by an introduction clarifying the meaning of moderateness linguistically and terminologically.

المقدمة

فإن من نعمة الله على هذه الأمة وتشريفه لها أن جعلها أمة وسطا خيارا عدولا فقال: (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).

فهي خير الأمم التي أخرجت للناس وقد وصفها المولى عز وجل وشهد لها بذلك فقال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) [آل عمران: 110.

ثم اصطفى الله سبحانه وتعالى لها رسولا من خيارها وأوسطها نسبا ومكانة فبعثه فيها نبيا رسولا: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) التوبة: 128.

والمقصود بالوسطية: هو التزام خط الوسط بين جميع المتناقضات والمتضادات والمتقابلات؛ وهو التوسط في الأمور والابتعاد عن طرفي الإفراط والتفريط. وهو أفضل طريقة يتبعها الإنسان ليؤدي ما عليه من واجبات تجاه ربه سبحانه وتجاه نفسه وتجاه الآخرين.

إنَّ ما صرنا إليه اليوم من الوهن والهوان ما كان إلا لانتشار آفتين في مجتمعاتنا هما آفتا الجمود والجحود اللتان تمثلان الابتعاد عن المنهج الوسطي والركون إلى الإفراط والتفريط.

فالناظر لطبائع الناس وأفكارهم بمختلف ثقافاتهم ومجتمعاتهم يلاحظ مظاهرَ التطرف والغلوِّ – ليس في التدين فحسب – بل حتى في معاملتهم فيما بينهم وعلاقاتهم الاجتماعية المختلفة الأمر الذي أدى إلى وقوع مزيد من الأزمات والمشاكل ولا خلاص من ذلك كله إلا بالعودة إلى الوسطية والاعتدال في جميع الأمور فكرا وسلوكا.

ولا شكَّ بأنَّ تمسك الأمم بمبادئها والتزامها بثوابتها هو ما يحقّق لها الأمجاد التاريخية والعطاءات الإنسانية. فحقيقة الوسطية هي التي تظهر سماحة هذا الدين الحنيف؛ تلك السمة التي كانت سببا في انتشار الإسلام في أنحاء المعمورة شرقا وغربا. فكانت الوسطية هي التي زينت الفكر الإسلامي ليكون فكرا أغرَّ أنار قبسُهُ ظلماتِ العالم أجمع. والوسطية في الإسلام تعني: الوسطية في كل جانب من جوانبه؛ فهو وسط في عقائده، ووسط في تشريعاته، ووسط في أخلاقه. لذا كان هذا البحث مقسما على ثلاثة مباحث. تسبقهما مقدمة وتمهيد وضح معنى الوسطية في اللغة والاصطلاح. ويعقبها خاتمة فيها عرض لأهمَّ النتائج.

بيّن المبحث الأول وهو بعنوان (الوسطية في الاعتقاد) أن العقائد الإسلامية وسطا بين الأفكار والعقائد التي ظهرت في هذه المعمورة عبر الأمكنة والأزمان. فهي عقيدة تدعو إلى الاقتصاد والاعتدال في جلها وتحاكي العقل والفطرة الإنسانية. ويمكن أن نلمس ذلك عند دراسة العقيدة الإسلامية في كل مضامينها.

فالإسلام دين يدعو إلى السماحة والاحترام التي من شأنها أن تزرع الحب والاحترام في قلوب الناس وصولا لتحقيق الوحدة بين أبناء الوطن الواحد.

أما المبحث الثاني (الوسطية في الأحكام والشرائع) فقد تحدَّث عن الميزات التي تميزت بها الشريعة الإسلامية والتي جعلتها قابلة للثبات والاستمرار، ومواكبة لحياة الإنسان في أي زمن كان وفي أي مكان كان؛ ذلك لأنها شريعة وسطية موسومة بالاعتدال.

وكان المبحث الثالث (والوسطية في الأخلاق والسلوك) لبيان أنَّ الأخلاق التي دعا إليها الإسلام تبين الوسطية والاعتدال في هذا المنهج القويم؛ فإن من نعم الله علينا أنه جعل سيدنا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى رسولا منذ ولادته موصوفا بالعصمة والطهارة والكمال، وما زال يرتقي سلم الأخلاق حتى نعته ربه قائلا: (وإنك لعلى خلق عظيم). فكان القدوة الحسنة في التخلق. والذي قال: (إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا)، وبذلك اكتسب حسن الخلق قدسية دينية جعلت مزاولته من أعلى درجات الإيمان.

التمهيد

معنى الوسطية في اللغة والاصطلاح

الوسطية في اللغة:

الوسط بإسكان السين يكون موضعا للشيء (ظرف)، تقول: زيد وسط الدار، فإذا فتحت السين صار اسما لما بين طرفي كل شيء[1].

وقيل أيضا: وَسْطٌ بالسكون فهو بمعنى بين؛ نحو: جلست وسْط القوم أي بينهم[2].

وقال أحمد بن يحيى الملقب بثعلب: الفرق بين الوسْط والوسَط: أن ما كان بين جزء من جزء فهو وسْطٌ، مثل الحلقة من الناس، والسبحة والعقد.

قال: وما كان مصمتا لا بين جزء من جزء فهو وَسَطٌ، مثل وسَط الدار والراحة والبقعة وقد جاء في (وَسْط) التسكين[3].

وسَطْت القوم أسِطهم وسْطا وسِطة أي توسّطتهم، ووسَط الشيءَ وتوسّطه، صار صار في وسطه[4]. ووسَط فلان جماعة من الناس، وهو يسِطهم، إذا صار وَسطهم[5].

ووسَط في حسبه وَساطة وسِطة ووَسّطَ ووسَط ووسَطه أي أكرمه[6].

والوسَط من الرجال ومن كل شيء: أعدله وأفضله، قال الله عز وجل: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[7] سورة البقرة: الآية / 143.

وواسِطة القلادة: الدّرة التي وسطها وهي أنفس خرزها[8]، ولذلك قيل في النبيّ عليه الصلاة والسلام هو أوسطهم حسبا أي خيرهم. ووسط كل شيء خيره ومنه قول الله عز وجل: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[9] سورة البقرة: الآية / 143.

---

(1) العين (مادة وسط): 7 / 279، ولسان العرب: 7 / 427.

(2) مصباح: 2 / 659.

(3) ينظر: تهذيب اللغة: 13 / 21، والمحكم والمحيط الأعظم: 595/8، ولسن العرب: 427/7.

(4) ينظر: الصحاح: 1167/3، ولسان العرب: 429.

(5) العين: 279/7، وتهذيب اللغة: 21/13.

(6) العين: 279/7، والمحكم والمحيط الأعظم: 596/8.

(7) العين: 279/7، وديوان الأدب: 215/3، والصحاح: 1167/3.

(8) الصحاح: 1167/3، والمحكم والمحيط الأعظم: 595/8، ولسان العرب: 429/7.

(9) غريب الحديث لابن قتيبة: 755/1، وتهذيب اللغة: 21/13.

وقال الأزهري: (العرب تصف الفاضلَ النسبِ بأنه أوسط قومه، وهذا يعرف حقيقته أهل اللغة، لأن العرب تستعمل التمثيل كثيرا، فتمثّل القبيلة بالوادي، والقاع، وما أشبه، فخير الوادي وسطه، فيقال: هذا من وسط قومه، ومن وسط الوادي، وسرَر الوادي، وسرارته، وسرّه، ومعناه كله من خير مكان فيه، فكذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من خير مكان في نسب العرب، وكذلك جعلت أمته أمّة وسطا، أي: خِيارا)[1].

والتوسيط أن تجعل الشيء في الوسط وقرأ بعضهم: {فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}، والتوسيط: قطع الشيء نصفين، والتوسُّط بين الناس من الوساطة[2].

الوسطية في الاصطلاح:

إن الوسطية واحدة من أهم الخصائص التي ميزت بها الأمة المحمدية، وهي سمة من سمات هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكا.

وبهذا فإن الوسطية ليست مصطلحا حديثا؛ بل هو مصطلح أصيل وارد في القرآن الكريم والسنة النبوية الغراء قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[3]. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: (يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فيقول الله تَعَالَى: هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نعم أَيْ رَبِّ. فيقول لِأُمَّتِهِ: هل بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا ما جَاءَنَا من نَبِيٍّ. فيقول لِنُوحٍ: من يَشْهَدُ لك؟ فيقول: مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وَأُمَّتُهُ. فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قد بَلَّغَ وهو قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على الناس} وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ)[4]. فيبين الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أن معنى الوسطية هو العدل.

وذكر العسقلاني بأن معنى الوسط هنا: (الجزء الذي بين طرفين، فالمعنى أنهم وسط لتوسطهم في الدين فلم يغلو كغلو النصارى ولم يقصروا كتقصير اليهود ولكنهم أهل وسط واعتدال)[5].

وقد عرفه المناوي فقال: (الوسط: ما له طرفان مذمومان كالجود بين البخل والسرف فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط فيمدح به)[6].

الوسط: في الأصل هو اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب في المدور، ومن الطرفين في المطول؛ كمركز الدائرة ولسان الميزان من العمود، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} يعني: متباعدين عن طرفي الإفراط في كل الأمور والتفريط، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث)[7].

وبهذا يتضح لنا بأن الوسطية: هي التزام خط الوسط بين جميع المتناقضات والمتضادات والمتقابلات؛ وهو التوسط في الأمور والابتعاد عن طرفي الإفراط والتفريط. وهو أفضل طريقة يتبعها الإنسان ليؤدي ما عليه من واجبات تجاه ربه سبحانه وتجاه نفسه والآخرين.

المبحث الأول

الوسطية في الاعتقاد

الإسلام هو دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق، فليس فيه تشدد في الاعتقاد، ولا تهاون ولا تقصير، ولا تعال ولا استكبار، ولا خضوع ولا ذل لغير الله خالق الأكوان ﷻ.

---

(1) تهذيب اللغة: 21/13.

(2) الصحاح: 1167/3.

(3) سورة البقرة: الآية / 143.

(4) صحيح البخاري رقم الحديث (3161): 1215/3.

(5) فتح الباري: 172/8.

(6) التعاريف: 725.

(7) كتاب الكليات: 938.

وبذلك كانت العقائد الإسلامية وسطا بين الأفكار والعقائد التي ظهرت في هذه المعمورة عبر الأمكنة والأزمان. فهي عقيدة تدعو إلى الاقتصاد والاعتدال في جلها وتحاكي العقل والفطرة الإنسانية. ويمكن أن نلمس ذلك عند دراسة العقيدة الإسلامية في كل مضامينها ولكن نقتصر على ذكر أمثلة لئلا يطول المقام.

المثال الأول: الاعتراف بالحرية الدينية للآخرين.

إن الدين الإسلامي دعا إلى حق الحرية الدينية للآخرين. فإن الله ﷻ أرسل الرسل (عليهم السلام) بالهدي الأغر لما فيه صالح الإنسان في دينه ودنياه، وهم مبشرين من أطاع بالثواب ومنذرين من عصى بالعذاب لا لأن يكرهوا الناس على الدخول في دين الله؛ وقد شهدت بذلك كثير من النصوص القرآنية منها قوله ﷻ: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]أي: ليخبروهم بالخبر السار والخبر الضار دنيويا كان أو أخرويا من غير أن يكون لهم دخل في وقوع المخبر به أصلا، وعليه يدور القصر والالزام[3].

ومما شهد بذلك أيضا قوله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] فإن هذه الآية جاءت بعد آية الكرسي والتي بيّنت فيها أهم أركان الاعتقاد من توحيد الخالق سبحانه وتعالى واتصافه بالصفات الكمالية – الجلالية منها والجمالية – ثم أردف ذلك بهذا النص لبيان أن في هذه الشريعة الغراء لا إكراه في الدين؛ لأن إلزام الغير بالفعل لا يرى فيه خيرا بحمله عليه والدين كله خير[2].

وروي أن هذه الآية نزلت في رجل من الأنصار يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان الحصين رجلا مسلما فقال للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله ﷻ فيه ذلك[3].

وإن ما جاء في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[4] فإن معناه – على ما ذكره المفسرون – أن لا دين مرضي عند الله سبحانه وتعالى غير الإسلام وهو الهدي الذي نزل على حضرة الرسول محمد (ﷺ) فمن خالف ذلك فإنما حسابه إلى الله سبحانه[5].

بل إن الإسلام يأمرنا باحترام المعتقدات الدينية فقد قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6] وينضم إليه ما رواه الأوزاعي عن مكحول عن واثلة ﷺ عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: (من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار) فقلت لمكحول: ما أشد أن يقال له؟ قال: (يقال له يا ابن الكافر)[7]. مع أن كفرهم ثابت في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[8] لكن الإسلام يحرم على المسلم ذلك؛ لما فيه من إثارة الشحناء بين الناس وتغلغل الحقد والكراهية في قلوبهم، وشج للحمة النسيج

---

[2] سورة الأنعام: الآية / 48.

[3] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: 135/3.

[1] سورة البقرة: الآية / 256.

[2] ينظر: روح المعاني: 12/3.

[3] جامع البيان عن تأويل القرآن: 312/1.

[4] سورة آل عمران: الآية / 52.

[5] أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 18/2.

[6] سورة الأنعام: الآية / 108.

[7] المعجم الكبير: رقم الحديث (135): 22 / 57.

[8] سورة المائدة: الآية / 73.

الاجتماعي وتؤدي إلى إحداث الفرقة بين أفراد أبناء الوطن الواحد. فإن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر أيضا[1].

لذلك حرم حضرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التعمق في الجدل الديني قائلا: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[2].

فالإسلام دين يدعو إلى السماحة والاحترام التي من شأنها أن تزرع الحب والاحترام في قلوب الناس وصولا لتحقيق الوحدة بين أبناء الوطن الواحد.

المثال الثاني: المنهج الذي اعتمده الإسلام في تكوين المعرفة.

تدور حول المعرفة الإنسانية وكيفية بناء الفكرة لديه مناقشات حادة تحتل مركزا رئيسيا في الفلسفة، لأنها نقطة الانطلاق لإقامة فلسفة متماسكة عن الكون والعالم فإذا لم تحدد مصادر الفكر البشري ومقاييسه وقيمه لا يمكن القيام بأية دراسة مهما كان لونها[3].

وإحدى أهم هذه الدراسات تلك التي تتناول المنابع الأساسية لمصادر المعرفة وصولا للإجابة على أسئلة يمكن أن تدور في الأذهان: ما هو المصدر الذي يمد الإنسان بذلك السيل من الفكر والإدراك؟ وكيف نشأت المعرفة عنده؟ وكيف تكونت حياته العقلية بكل ما تزخر به من أفكار ومفاهيم؟

وهذه المسألة لها تاريخ طويل في جميع أدوار الفلسفة اليونانية والإسلامية والأوربية. وقد تمخضت من العقل الإنساني نظريات متعددة تفسر المنهج الذي يعتمده الإنسان في بناء الفكر. وقد تناوله السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) في كتابه فلسفتنا[4] فمن أحب مزيد بيان عنها فليراجع هذا الكتاب.

ولكن ما نحن بصدده هو أن الإسلام كان له منهج مميز يختلف عن كل هذه المناهج باعتباره سلك طريق الوسطية والاعتدال في ذكر المصادر التي تمد الإنسان بذلك السيل العارم من المعارف.

فقد قال العلامة النسفي (رحمه الله): (مصادر العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل).

فإذا تأملنا في هذا المنهج بالنسبة إلى المناهج الأخرى نجده منهجا راقيا ارتقى فيه المسلمون إلى مصاف الوسطية والاعتدال فلا إفراط فيه ولا تفريط.

فإن المسلمين اعتمدوا في بناء عقائدهم وأفكارهم على المصادر الثلاثة ولم يستثنوا منها مصدرا واحدا كما فعل غيرهم من المفكرين والفلاسفة الذين ابتعدت بهم أفكارهم بين مفرط ومفرط.

فالفلاسفة اليونانيون مثلا استثنوا من هذه المصادر الخبر الصادق وهو خبر الصادقين المصدوقين أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة والسلام، زاعمين أن عقولهم قادرة على الاستقلال بإدراك المعارف[1]. ونسوا أن العقل الإنساني لا يستقل بإدراك الحقائق كلها بل لا بد له من معين يعينه على إدراكها وهذا المعين هو رسل الله عليهم السلام ويمكن لنا أن نلمس ذلك في أمور منها؛ أن العقول بين البشر متفاوتة فهي تتفاوت في الفرد الواحد خلال مراحل نموه، كما أنها تتفاوت بين سائر بني البشر فمنهم البليد الذي لا يفهم إلا بعناء من المعلم ومنهم الذكي الذي يفهم بالإشارة ومنهم من بلغ عقله درجة الكمال – الأنبياء مثلا الذين وصف الخالق عز وجل عقولهم بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ﴾[2] فهي تدرك

---

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 441/2.

[2] سنن أبي داود: (رقم الحديث: 4800): 4 / 253.

[3] فلسفتنا: 41.

[4] ينظر: المصدر نفسه: 41 – 125.

[1] ينظر: أصول الدين الإسلامي: 205.

[2] سورة النور: الآية / 35.

الحقائق بدون حاجة إلى معلم[1]. فضلا عن أن ما جاء به الرسل عليهم السلام يمكن أن يصنف على قسمين؛ قسم ممكن للعقل أن يستقل بإدراكه مثل مسألة وجود الخالق سبحانه واتصافه بالصفات الكمالية، وقسم لا يستقل العقل في إدراكه وهو كثير مثل مسألة اليوم الآخر وما يتفرع منها من مسائل[2]. فمن أين للعقل أن يدرك وجود الجنة والنار دون سماعها من الأنبياء عليهم السلام.

ولا يمكن الاستغناء بالعقل والاكتفاء بالقرآن؛ لأن العقل هو الآلة التي تفهم فيها النصوص. فقد قال الامام الغزالي – رحمه الله –: (المعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا الأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور)[3].

ولا يمكن الاكتفاء بالحاسة والاستغناء عن العقل والنص كما فعل القائلون بالنظرية الحسية – جون لوك، والماركسيون الذين قالوا إن الحاسة هي الممون الوحيد للذهن البشري بالمعارف. منكرين قدرة العقل على الإدراك وتوليد معارف جديدة لا تصل إلى إدراكها الحواس[4].

وهذا هو المعتمد في الماركسية في تعليل الإدراك البشري وأنه انعكاس للواقع الموضوعي فكل إدراك يرجع إلى انعكاس لواقع معين ويحصل هذا الانعكاس عن طريق الحواس[(1)]. وعلى هذا المنهج السقيم بنوا المادية الجدلية فكان سبب ضلالهم وابتعادهم عن الحق؛ لأن الحاسة إنما يقع إدراكها على العلة والمعلول فقط دون أن تدرك العلاقة بينهما والتي هي تأثير العلة على المعلول والتي يسميها العلماء بالعلية أو السببية.

فإذا رمينا جسما إلى السماء نجد أن سرعته تتباطأ ثم يتغير اتجاهه هاويا إلى الأرض. فالحاسة يقع إدراكها على الجسم والأرض فقط دون إدراك العلاقة بينهما وهي قوة جذب الأرض لهذا الجسم. وهذا يدل على أن للإنسان مصدرا آخر للإدراك سوى الحاسة وأن نطاق إدراكه أكبر من نطاق إدراك الحاسة لأنه أدرك ما لم يكن لها أن تدرك.

ثم أن الاعتماد على الحواس استقلالا لا يورث إلا الظن (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[(2)] لأنها كثيرا ما تخدع صاحبها؛ فالعصا المغمورة في الماء ترى مكسورة مع أنها خلاف ذلك، والناظر إلى الظل يجده واقفا مع أنه متحرك، وغيرها من المحسوسات التي يحكم بها الحس ثم يكذبه العقل تكذيبا لا سبيل لدفعه)[(3)].

وبهذا العرض الموجز يدل على أن المنهج الذي اعتمده الإسلام في كيفية بناء العقيدة واكتساب المعرفة هو منهج وسطي معتدل خلافا لغيره من الفلسفات والعقائد التي منها ما جنح إلى الإفراط في تقديس العقل ومنها ما ذهب إلى التفريط به.

فضلا عن ذلك أن منهج القرآن في بناء العقائد كان مختلفا عن الكتب المقدسة؛ فلم يقتصر على ذكر العقائد فقط، ولم يطلب من الناس التسليم لها لمجرد حكايتها وإنما أقام البرهان عليها وحكى عقائد المخالفين وحمل عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر ليؤكد أن الصحيح المنقول لا يتعارض مع الصحيح المعقول.

فأما التوحيد فقال: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾[(4)] وقال أيضاً: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[(5)] وآيات غيرها بين فيها سبحانه عقيدة الوحدانية ولكنه شرع في آيات أخرى إلى إثباتها فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[(6)].

---

[1] ينظر: إحياء علوم الدين: 2 / 89.

[2] ينظر: شرح المقاصد في علم الكلام: 2 / 173.

[3] الاقتصاد في الاعتقاد: 4.

[4] ينظر فلسفتنا: 47.

[(1)] ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[(2)] سورة يونس: الآية /36.

[(3)] ينظر: المنقذ من الضلال: 2.

[(4)] سورة النساء من الآية / 36.

وطلب من الناس الأيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1]. ثم شرع في إثباتها وذلك بعد أن بيّن إعجاز القرآن الكريم قائلاً: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[2].

فتميز نهج القرآن بوضوح الأفكار وسلامتها، والدعوة إليها على بصيرة، كما أنها معقولة وملائمة لفطرة الإنسان العقلية.

أما مسألة البعث وهي من المسائل التي لا يستقل العقل بإدراكها فشرع القرآن الكريم إلى لفت أنظار الناس إلى الواقع المحسوس ليدلل على أن البعث ممكن وليس مستحيلاً. فقال ﷻ: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى}[3]وقال أيضا: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قل يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم}[4]

ثم أن الناظر للعقائد الدينية في عمومها يجدها وسطا بين العقائد والأفكار الأخرى. فمثلا عقيدة الإيمان بوجود خالق أنشأ هذا الكون والإقرار له بالوحدانية جل جلاله هي وسط بين العقائد الأخرى فمنهم من يجحد وجود الإله وهؤلاء وجدوا عبر الأزمان وحكى عنهم القرآن الكريم قائلا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[5].

فهؤلاء هم الدهريون الذين اعتقدوا بأزلية المادة وجحدوا وجود الإله وأنكروا اليوم الآخر وقالوا بأن الطبع هو المحيي والدهر هو المفني[6]وفرطوا في كل هذا.

ومنهم من نسب خلق الوجود إلى أجزاء من الموجودات الطبيعية ذواتها، فتارة اتخذ الرب من الكواكب أو الشمس والقمر، وأخرى الضياء والظلمة، وثالثة من أنواع الحيوان أو أفراد الإنسان[7].

ولكن الإنسان أنكر أن يكون الجزء هو الذي خلق الكل وأقر بكل قبول عقلي بأن هناك خالق واحد لا شريك له هو من أبدع هذا الكون.

المبحث الثاني

الوسطية في الأحكام التشريعية

إن الدارس والقارئ للفقه الإسلامي بدقة يجده متميزا بخصائص لا يتميز بها غيره، مما جعله قابلا للنماء والعطاء طيلة أربعة عشرا قرنا من الزمن، وسيبقى كذلك لأن الشريعة الإسلامية ذات صفة عالمية ودائمة.

ولما كانت هذه الشريعة آخر شريعة سماوية كان لا بد لها أن تكون مميزة بخصائص ومميزات تجعلها قابلة للثبات والاستمرار، ومواكبة لحياة الإنسان في أي زمن كان وفي أي مكان كان؛ ذلك لأنها شريعة وسطية موسومة بالاعتدال ويمكن أن نلمس ذلك في كل مضامين هذه الشريعة الغراء ولكن نقتصر على ذكر أمثلة لبيان ذلك.

---

(5) سورة البقرة الآية / 163.

(6) سورة الأنبياء الآية / 22.

(1) سورة الأحزاب الآية / 40.

(2) سورة النساء الآية / 82.

(3) سورة الحج الآيتان / 5 – 6.

(4) سورة يس الآيتان / 78– 79

(5) سورة الجاثية: الآية / 24.

(6) ينظر: الملل والنحل: 235/2.

(7) مجمع الأشتات: 17 – 18.

المثال الأول: الابتعاد عن الإفراط والتفريط في العبادة

العبادة تجمع أصلين هما: غاية الحب وغاية الذل والخضوع[1]، ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها القلبية؛ المحبة والخوف والرجاء. وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث في قلب المؤمن: (بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر)[2]. وبهذا يتضح مفهوم العبادة في الشرع.

ولقد تميزت الشريعة الإسلامية في توضيحها لمفهوم العبادة ومضانها عن كل الشرائع السماوية فجاءت بمفهوم معتدل تجسدت فيه كل ملامح الوسطية وابتعدت فيه عن الإفراط والتفريط.

فلو تأملنا في التوراة – بعد تحريفها – لوجدنا تقديس المادة غلب على بنودها، فلا تقرأ في أسفار التوراة ذكرا للآخرة، حتى ما ورد فيها من وعد ووعيد فإنما هو متعلق بالدنيا فقط، فلا يعمل الشخص إلا لتحقيق كسب عاجل، أو خوف من عقوبة عاجلة[3]، بل بلغوا وطبقوا ماديتهم حتى في معرفة الله، فقالوا: {أَرِنَا اللهِ جَهْرَةً}[4]، وقالوا: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[5].

ووفقا لهذا التصور المادي الدنيوي أغرق هؤلاء في تقديس المحسوسات فقد أصبحت القيم المادية هي محور الحياة عندهم. وقد وصفهم القرآن الكريم، وبين مدى تعلقهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها فقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[1]

فبين الله سبحانه أنهم أحرص الناس على الحياة ثم خصص ذكر المشركين بعد التعميم وذلك لإفادة المبالغة في حرصهم والزيادة في توبيخهم وتقريعهم حيث كانوا مع كونهم أهل كتاب يرجون ثواباً ويخافون عقاباً، أحرص ممن لا يرجو ذلك، ولا يؤمن ببعث ولا يعرف إلا الحياة العاجلة، وإنما كان حرصهم أبلغ لعلمهم بأنهم صائرون إلى العذاب، ومن توقع شراً كان أنفر الناس عنه، وأحرصهم على أسباب التباعد منه[2]. كما أن القرآن الكريم وصفهم بأنهم لايحبون الموت حيث قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[3] لأنهم ربطوا غايتهم بالدنيا، فعلمهم للدنيا وعبادتهم لمآرب دنيوية، فإذا انتهت الدنيا فقد فاته كل شيء فهم بهذا أغرقوا في الشهوات، وعبدوا أنفسهم للماديات، فهم كمشركي قريش الذين قالوا: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ}[4]، وهذا المنهج يمثل التفريط في أسوأ صوره وحالاته، ولذلك أمرنا الله أن نستعيذ منه في كل صلاة، ونسأله أن يجنبنا إياه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[5].

ولو تأملنا منهج العبادة في الديانة المسيحية نجده منهجا قائما على الروحانيات، وذلك بإعلائها وتمجيدها، والإغراق في مفهوم العبادة والرهبنة، وهو منهج الإفراط والغلو وابتدع النصارى رهبانية قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وتمنع كل أنواع الزينة وطيبات الرزق، وترى ذلك رجسا من عمل الشيطان وبالغوا في العبادة، وأخرجوها عن

---

(1) مدارج السالكين: 1 / 74.

(2) المصدر نفسه: 1 / 517.

(3) الوسطية في القرآن الكريم: 3 / 4.

(4) سورة النساء: الآية / 153.

(5) سورة البقرة: الآية / 55.

(1) سورة البقرة: الآية / 96.

(2) روح المعاني: 330/1.

(3) سورة البقرة: الآية / 94 – 95.

(4) سورة الجاثية: الآية / 24.

(5) سورة الفاتحة: الآية / 5.

كيفيتها، وعن المراد منها، وأصبحت رهبانية غالية مشوهة، مغذية للأجساد، ابتدعوها من أنفسهم، بلا حجة ولا برهان[6]: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[7].

وهذا المنهج يمثل الإفراط والغلو، وهو الوجه الثاني من وجوه الانحراف عن الصراط المستقيم، ولذلك أمرنا بأن نسأل الله أن يجنبنا إياه: ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1].

أما في شريعتنا الإسلامية فقد غاب عنها الإفراط والتفريط في تقريرها لمنهج العبادة؛ فكان منهجها منهجا فريدا في توازنه ووسطيته واعتداله وشموله وواقعيته وكماله. فكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حريصا على تحقيق ذلك المنهج وأينما يجد إفراطا أو تفريطا من أحد في ذلك نراه مسرعا إلى تقويمه.

فكان صلى الله عليه وآله يحث المسلمين أن تكون عبادتهم خالصة إلى وجه الله تعالى لا إلى دنيا يصيبونها حيث قال: ﴿الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ﴾[2]

وروي أن رجلا جاء إلى رسول اللَّهِ ﷺ من أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ ولا يُفْقَهُ ما يقول حتى دَنَا فإذا هو يَسْأَلُ عن الْإِسْلَامِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: خَمْسُ صَلَوَاتٍ في الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ فقال: هل عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قال: لَا إلا أَنْ تَطَوَّعَ. قال رسول اللَّهِ ﷺ: وَصِيَامُ رَمَضَانَ. قال: هل عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قال: لَا إلا أَنْ تَطَوَّعَ. وَذَكَرَ له رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الزَّكَاةَ. قال: هل عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قال: لَا إلا أَنْ تَطَوَّعَ. فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وهو يقول: والله لَا أَزِيدُ على هذا ولا أَنْقُصُ. قال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: أَفْلَحَ إن صَدَقَ[3]. على أنه إن لم يصدق فيما التزم لا يفلح[4] فكان النبي ﷺ يحث على إخلاص النية لله سبحانه وعدم تعلق القلب بالدنيا لذلك كان يقول: (لو عَدَلَتِ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما أَعْطَى كَافِرًا منها شيئا)[5]. ونرى ذلك جليا في سيرة ساداتنا من أهل بيت النبي عليهم وعليه الصلاة والسلام فقد روي أن الإمام علي عليه السلام: جاءه ابن التياح فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء قال الله أكبر فقام متوكئا على ابن التياح حتى قام وأمر فنودي في الناس فأعطي جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول يا صفراء يا بيضاء غري غيري ها وها حتى ما بقي منه دينار ولا درهم ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين[6].

وهذه الشواهد وغيرها في السنة النبوية الغراء تدل على أن الشريعة الإسلامية نأت عن التفريط في أركان العبادة ودعت لأن تكون هذه العبادة خالصة لله سبحانه.

ومن جانب آخر نجد أن النبي ﷺيحث الناس على عدم الإفراط في العبادة بشكل خارج عن المعتاد الديني والدنيوي لما في ذلك من تفريط في حقوق أخرى لذلك كان يقول: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت◌ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى)[1].

---

(6) الوسطية في القرآن الكريم: 3 / 5.

(7) سورة الحديد: الآية / 27.

(1) سورة الفاتحة: الآية / 7.

[2] صحيح ابن حبان: رقم الحديث (388): 2 / 113.

[3] صحيح البخاري: رقم الحديث (46): 1 / 25.

[4] ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: 1 / 108.

[5] المعجم الكبير: رقم الحديث (5921): 6 / 178.

[6] مرقاة المفاتيح: 11 / 252.

◌ المنبت: الانبتات الانقطاع، ورجل منبت أي منقطع به، وأبت بعيره أي قطعه. والمنبت في الحديث الذي أتعب دابته حتى حتى عطب ظهرة فبقي منقطعا به. ينظر: لسان العرب (مادة بتت): 2 / 7.

[1] سنن البيهقي الكبرى: رقم الحديث (4520): 3 / 18.

وروي عن أنس ضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأنا أقوم الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[2].

فالرسول ﷺ يبين أن خشية الله عز وجل لا تكون بالإفراط في أعمال والتقصير في أخرى، ولكنها تحصل في الموازنة بين جميع مطالب الله عز وجل وهو عين الوسطية والحكمة والاستقامة والاعتدال. وهو ما قرره القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[3]. فقد روي عن عبد الله بن عمرو: قال لي النبي ﷺ ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت: إني أفعل ذلك، قال: فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك، ونفهت نفسك، وإن لنفسك حقا ولأهلك حقا فصم وأفطر، وقم ونم[4].

وعندما أخى آخر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بين سلمان وبين أبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة. فقال: ما شأنك متبذلة؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، قال: فلما جاء أبو الدرداء قرب إليه طعاما فقال: كل فإني صائم قال: ما أنا بآكل حتى تآكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم، فقال له سلمان: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن فقاما فصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقا، ولربك عليك حقا، ولضيفك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتيا النبي ﷺ فذكر ذلك، فقال له: صدق سلمان [1].

عن عائشة ﷺ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: "من هذه؟"، فقلت: فلانة لا تنام من الليل، تذكر من صلاتها قال: (عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه)[2]، وهذا توجيه نبوي كريم نحو الاعتدال والتوسط.

وعن أنس ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين. فقال: ما هذا؟ قالوا: لزينب تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال: (حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر فليقعد)[3].

وقد علق الإمام النووي حول هذين الحديثين فيقول: (فيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق، وليس الحديث مختصا بالصلاة، بل هو عام في جميع البر، وفي الحديث كمال شفقته –صلى الله عليه وآله وسلم– ورأفته بأمته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط، والقلب منشرح فتتم العبادة، بخلاف من تعاطى من العبادة ما يشق عليه فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم)[4].

ذم الله الإفراط في العبادة والغلو فيها، حيث قال في حق بني إسرائيل من النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[5].

---

[2] صحيح البخاري: رقم الحديث (4776): 5 / 1949.

[3] سورة القصص: الآية / 77.

[4] صحيح البخاري: رقم الحديث (1102): 1 / 387.

[1] سنن الترمذي رقم الحديث (2413): 4 / 608.

[2] صحيح البخاري رقم الحديث (43): 1 / 24.

[3] المصدر نفسه رقم الحديث (1099): 1 / 386.

[4] شرح النووي على صحيح مسلم: 6 / 71.

[5] سورة الحديد: الآية / 27.

وقال ابن كثير: {رَهْبَانِيَّةً ابتَدَعُوهَا} أي: ابتدعتها أمة النصارى ما كتبناها عليهم. أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي: فما بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والآخر: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله –عز وجل–[1].

وهذه الرهبانية التي ابتدعها النصارى لم يشرعها الله، وهي غلو في العبادة، ولذلك كانت النتيجة عدم قدرتهم على المحافظة عليها لمشقتها وصعوبتها.

كما ذم الله الغلو والرهبنة فقد ذم التفريط، والتضييع والإهمال، فقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[2].

وقال ابن كثير مبينا دلالة هذه الآية على الخروج عن منهج الوسطية.

وقال الشنقيطي في تفسير الآية: (فخلف من بعد أولئك النبيين خلف، أي: أولاد سوء. ثم قال: إن هذا الخلف السيء الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتهم القبيحة أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات ثم قال: فإذا عرفت الكلام في الآية الكريمة، وأن الله توعد فيها من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغي، الذي هو الشر العظيم، والعذاب الأليم، فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخرى، كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 4–6]، وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتبعون الشهوات، وتهديدهم، وكقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:3][3].

المبحث الثالث

الوسطية في الأخلاق والسلوك

الأخلاق جمع خُلق، وهو في اللغة بمعنى: الطبع والسجية[1]. أما في الاصطلاح فقد عرفه العلماء بأنه: كل فعل وجد من فاعله مقدرا لا على سهو أو غفلة[2]. أو هو ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال النفسانية بسهولة من غير روية[3].

فالأخلاق هي مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس وتصدر عن تلك المعاني أفعال الإنسان سواء أكانت حسنة أم قبيحة. وبذلك فإن سلوك الإنسان موافق لما هو مستقر في نفسه من معانٍ وصفات. يقول الغزالي رحمه الله: (إن كل صفة تظهر في القلب يظهر أثرها في الجوارح حتى لا تتحرك إلا على وفقها لا محالة)[4].

وبهذا المعنى يقول حضرة الرسول ﷺ: ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[5]. ولذلك قيل: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن[6].

ولهذا نجد أن الإسلام أولى هذا الجانب الأهمية الكبرى لأنه يمثل الجانب التطبيقي للإسلام في سلوك الفرد فيقول حضرة الرسول ﷺ: (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائكم)[7]. ومن حسن خلقه كان أقرب الناس إلى الرسول ﷺ يوم القيامة حيث يقول الرسول ﷺ: (إن أحبكم إلي وأقربكم مني يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبعدكم مني

---

[1] تفسير القرآن العظيم: 4 / 316.

[2] سورة مريم: الآية / 59.

[3] ينظر: أضواء البيان: 3 / 443 – 446.

[1] ينظر لسان العرب: (مادة خلق): 10 / 86.

[2] كتاب الكليات: 414.

[3] معجم مقاليد العلوم: 1 / 197.

[4] إحياء علوم الدين: 3 / 57.

[5] صحيح البخاري: 1 / 28، وينظر صحيح مسلم: 3 / 1219.

(6) مدارج السالكين: 1 / 52.

(7) صحيح ابن حبان: 9 / 483.

وأبغضكم إلي مساويكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون)[8]. وسئل الرسول ﷺ ما أفضل ما أعطي المسلم؟ قال: (خلق حسن)[1]. ثم إن الله سبحانه أثنى على حبيبه المصطفى بعظمة خلقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

وقد فطر الله عز وجل الإنسان على حب الخير، وخلق فيه الميل الى الأخلاق الفاضلة؛ وتركز في نفسه التوجه إلى المحاسن، والنفرة من القبائح، إلا الذين انتكست فطرتهم، وأغواهم الشيطان. وقد جاء الإسلام بالتأكيد على الأخلاق الفاضلة، والتنفير من الأخلاق السيئة بصورة تتسم بالوسطية والتوازن والاعتدال.

وفي ذلك يقول ابن القيم – رحمه الله –: (والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط؛ فيحمله على خلق الجود والسخاء الذين هما توسط بين الإمساك والإسراف والتبذير، وعلى خلق الحياء الذي هو وسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس... وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميمان... فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين لا بد)[3].

وبذلك يكون المنهج الإسلامي في تقريره للأخلاق منهجا وسطيا موسوما بالاعتدال في مضامينه، فلا إفراط فيه ولا تفريط. فهو يأمرنا أن نتحلى بالجود والكرم لأنه وسط بين خلقين ذميمين هما الإسراف والبخل فمتى ما عدل الإنسان عن هذا الخلق المحمود فإنه لا محالة متخلق بواحد من الخلقين المذمومين اللذين يمثلان طرفي الإفراط والتفريط ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[4].

وهكذا بقية الأخلاق التي أمر بها الإسلام فالحلم من الأخلاق المحمودة التي أمر بها الإسلام عن بن عَبَّاسٍ أَنَّ النبي ﷺ قال لِلْأَشَجِّ الْعَصَرِيِّ: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله الْحِلْمَ وَالْحَيَاءَ)[5].

وهو متوسط بين خلقين ذميمين وإذا انحرفت النفس عن خلق الحلم انحرفت إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة وإما إلى الذل والمهانة والحقارة ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف كما قيل كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء إليها اللئام[1].

وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود وإما إلى جبن وتأخر مذموم يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (ليس الشديد بالصرعة قالوا فمن الشديد يا رسول الله قال الذي يملك نفسه عند الغضب)[2].

وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إما إلى حرص وكلب وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة

فكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا ما يدعو بين الركنين (رب قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه)[3] وكان يقول أيضا (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس)[4].

وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت إما إلى قسوة وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس كمن لا يقدم على ذبح شاة ولا إقامة حد وتأديب ولد ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك وقد ذبح أرحم الخلق بيده في موضع واحد ثلاثا وستين بدنة وقطع

---

(8) مصنف ابن أبي شيبة: 5 / 210.

[1] صحيح ابن حبان: 2 / 226.

[2] سورة القلم: الآية / 4.

[3] مدارج السالكين: 2 / 308 – 309.

[4] سورة الإسراء: الآية / 29.

[5] سنن ابن ماجه: رقم الحديث (4188): 2 / 1401.

(1) مدارج السالكين ج2/ص311

(2) مصنف عبد الرزاق ج11/ص188

(3) صحيح ابن خزيمة: رقم الحديث (2728): 4 / 217.

(4) سنن ابن ماجة: رقم الحديث (4137): 2 / 1386.

الأيدي من الرجال والنساء وضرب الأعناق وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم[5].

وكذلك طلاقة الوجه والبشر المحمود فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد وطي البشر عن البشر وبين الاسترسال مع كل أحد بحيث يذهب الهيبة ويزيل الوقار ويطمع في الجانب كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة والنفرة في قلوب الخلق ولذلك قال تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[6].

يقول ابن القيم رحمه الله: (وصاحب الخلق الوسط مهيب محبوب عزيز جانبه حبيب لقاؤه وفي صفة نبينا من رآه بديهة هابه ومن خالطه عشرة أحبه)[7].

الخاتمة

بعد الانتهاء من البحث تم التوصل إلى أهم النتائج:

- الوسطية من أهم الخصائص التي اختصت بها الأمة المحمدية، وهي الميزة التي تميز بها هذا الدين عقيدة وشريعة وسلوكا.
- إن الوسطية ليست من المصطلحات الحديثة بل هو مصطلح أصيل وارد في القرآن الكريم والسنة النبوية الغراء وكثر استخدامه في خطابنا الديني المعاصر وذلك لميل الكثرين عن المنهج المعتدل وركونه إما إلى الإفراط أو إلى التفريط.
- الوسطية هو التزام خط الوسط بين جميع المتناقضات والمتضادات والمتقابلات؛ وهو التوسط في الأمور والابتعاد عن طرفي الإفراط والتفريط. وهو أفضل طريقة يتبعها الإنسان ليؤدي ما عليه واجبات تجاه ربه سبحانه وتجاه نفسه والآخرين.
- العقائد الإسلامية وسط بين الأفكار والعقائد التي ظهرت في هذه المعمورة عبر الأمكنة والأزمان. فهي عقيدة تدعو إلى الاقتصاد والاعتدال في جلها.
- كان المنهج الذي اعتمده الإسلام في كيفية تكون المعرفة الإنسانية منهجا وسطيا معتدلا حيث اعتمد في بناء الفكرة على الحواس والعقل والأخبار الصادقة ولم يستثن مصدرا من هذه الثلاث خلافا لما اعتمده سائر المفكرين.
- إن الدين الإسلامي حرم كل ما من شأنه أن يثير الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، ومثاله تحريمه التعمق في الجدل الديني؛ لأنه دين يسعى إلى زرع المحبة والوآم بين أبناء هذا الوطن مهما تعددت مذاهبهم ومشاربهم.
- إن الأحكام التشريعية في الإسلام أحكام قابلة للثبات والاستمرار، ومواكبة لحياة الإنسان في كل زمان ومكان ذلك لأنها أحكام وسطية معتدلة لا إفراط فيها ولا تفريط.
- إن ما قصده الإسلام في سنه للأخلاق هو عودة النفس إلى جانب الاعتدال؛ فكل خلق حسن هو وسط بين خلقين مذمومين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ) دار الفكر . بيروت (د. ت).
2. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ت 982 هـ)، دار إحياء التراث العربي . بيروت (د.ت)

(5) مدارج السالكين ج2/ص311

(6) سورة لقمان: الآية / 18.

(7) مدارج السالكين: 2 / 311.

3. أصول الدين الإسلامي: د. رشدي العليان، ود. قحطان عبد الرحمن الدوري أستاذان في كلية الشريعة . جامعة بغداد. الطبعة الرابعة (1411هـ . 1990م).
4. أضواء البيان: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت 1393 هـ) تحقيق: (الكتب والبحوث والدراسات) . بيروت، (1415هـ . 1995م).
5. الاقتصاد في الاعتقاد: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت 505 هـ)، مكتبة الشرق الجديد . بغداد، (د.ت).
6. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: أبو سعيد عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت 791هـ) دار الفكر . بيروت، (د.ت).
7. التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي (ت1031هـ)، تحقيق: (د. محمد رضوان الداية)، دار الفكرالمعاصر – دمشق، (1410هـ).
8. تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت370هـ)، تحقيق: (محمد عوض مرعب)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (2001م).
9. جامع البيان عن تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ)، تحقيق: (الشيخ خليل الياس) دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت، (1415هـ . 1995م).
10. الجامع الصحيح المعروف بـ (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت 256هـ)، تحقيق: (مصطفى ديب البغا)، دار ابن كثير . بيروت، الطبعة الثالثة (1407هـ . 1987م).
11. الجامع الصحيح المعروف بـ (صحيح مسلم): مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النسابوري (ت 261هـ)، تحقيق: (محمد فؤاد عبد الباقي)، دار إحياء التراث العربي . بيروت، (د. ت).
12. ديوان الأدب:
13. روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني: أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت 1270هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (د. ت).
14. سنن ابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني (ت 273هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، (د. ت).
15. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (ت 275هـ)، تحقيق: (سعيد محمد اللحام)، دار الفكر للطباعة والنشر، (1410هـ – 1990م).
16. سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت 279هـ)، تحقيق: (أحمد محمد شاكر، وآخرون)، دار إحياء التراث العربي . بيروت، (د. ت).
17. السنن الكبرى للبيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي (ت 458هـ)، تحقيق: (محمد عبد القادر عطا)، مكتبة دار الباز . مكة المكرمة (1414هـ . 1994م).
18. شرح المقاصد في علم الكلام: سعد الدين التفتازاني (ت 792هـ) دار المعارف النعمانية . باكستان، (1401هـ . 1981م).
19. شرح النووي على صحيح مسلم: أبو زكريا يحي بن شرف بن مري النووي (ت 676هـ) دار إحياء التراث العربي . بيروت، الطبعة الثانية (1392م).
20. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري (ت 393هـ)، تحقيق: (أحمد عبد الغفور عطار)، دار العلم للملايين . بيروت، الطبعة الرابعة، (1407هـ . 1987م).
21. صحيح ابن حبان: محمد بن حبان السبتي (ت354 هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2 (1414 هـ – 1993م).
22. صحيح أبي خزيمة: محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النسابوري (ت 311هـ)، تحقيق: (د. محمد مصطفى الأعظمي)، المكتب الإسلامي . بيروت، الطبعة الثانية، (1390هـ . 1970م).

23. العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ)، تحقيق: (مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي)، مؤسسة دار الهجرة، الطبعة الثانية (1409هـ).
24. غريب الحديث: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276هـ)، تحقيق: (د. عبد الله الجبوري)، مطبعة العاني – بغداد، (1397هـ).
25. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت 852هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت، الطبعة الثانية (د. ت).
26. فلسفتنا: السيد محمد باقر الصدر، مطبعة أنصار الله – النجف الأشرف (1424هـ).
27. كتاب الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (ت1094هـ)، تحقيق: (محمود درويش، ومحمد المصري)، مؤسسة الرسالة . بيروت (1419هـ . 1998م).
28. لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت 711هـ) دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية (1405هـ).
29. مجمع الأشتات: الدكتور عبد الله مصطفى الهرشمي، الطبعة الأولى (1410هـ – 1989م).
30. المحكم والمحيط الأعظم: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي (ت 458هـ) دار الكتب العلمية . بيروت، الطبعة الأولى (2000م)، تحقيق: (عبد الحميد هنداوي).
31. مدارج السالكين: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بان القيم (ت 751هـ) تحقيق: (محمد حامد الفقي) دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية (1393هـ– 1973م).
32. مرقاة المفاتيح: علي بن سلطان بن محمد القاري، تحقيق: (جمال عيتاني) دار الكتب العلمية . بيروت، الطبعة الأولى (1422هـ–2001م).
33. مصباح:
34. مصنف أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي (ت 235هـ)، تحقيق: (سعيد اللحام)، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (1409هـ – 1981م).
35. مصنف عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211هـ)، تحقيق: (حبيب الرحمن الأعظمي) المكتب الإسلامي . بيروت، الطبعة الثانية (1403هـ).
36. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت 360هـ) تحقيق: (حمدي عبد الحميد السلفي)، مكتبة الزهراء . الموصل، الطبعة الثانية (1404هـ . 1983م).
37. معجم مقاليد العلوم: أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق (أ.د. محمد إبراهيم عبادة)، مكتبة الآداب القاهرة – مصر، الطبعة الأولى (1424هـ–2004م).
38. الملل والنحل: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (ت 548هـ)، تحقيق: (محمد سيد كيلاني)، دار المعرفة . بيروت (1404هـ).
39. المنقذ من الضلال: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت 505هـ)، (د.ت).
40. الوسطية في القرآن الكريم: د. علي محمد الصلابي، دار المعرفة – بيروت – لبنان (د. ت).